

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

[387] العقل والانحراف عن الفطرة وفقدان الدين والدنيا؟! ثم تضيف الآية: (وَلَقَدْ رَاصِدًا غَفَىٰ نَازَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ). نعم، إبراهيم(عليه السلام) اصطفاه الله في الدنيا ليكون "الأسوة" و"القدوة" للصلحين. الآية التالية تؤكد على صفة أخرى من صفات إبراهيم التي هي الواقع أساس بقية صفاته العظيمة وتقول: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ). هذا الإنسان المتحرر من الإشادات الوضيعة يسارع إلى التسليم التام حال سماعه نداء ربّه: "أسلم"، ولا يتوانى في رفض كل أوهام زمانه القائمة على عبادة النجوم والشمس والقمر، فيتركها بعد أن رآها محكومة بالقوانين التي تسود الخليقة ويقول: (إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (1). مرّ بنا في الآيات السابقة أن إبراهيم وإسماعيل(عليهما السلام) بعد بناء الكعبة طلبا من الله سبحانه أن يتقبل أعمالهما، ثم بعد ذلك طلبا أن يمنّ عليهما الله بنعمة التسليم لوجهه الكريم: (رَبِّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ) ومثل هذا طلباه لذريّتهما: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ). ذلك لأن الخطوة الأولى في سموّ الشخصية الإنسانية الطهر والإخلاص، ومن هنا أسلم إبراهيم(عليه السلام) وجهه لربه دون سواه، ولذلك عرف هو ودينه بهذا العنوان. حياة إبراهيم(عليه السلام) بأجمعها كانت مفعمة بأعمال جسيمة نادرة، نضاله المبرير ضد المشركين، صموده الكبير في قلب النيران، هذا الصمود الذي أثار إعجاب نمرود الطاغية نفسه حيث راح يردد دون وعي: (مَنْ أَتَىٰ خَذَإِلَهَا فَلَا يَتَّخِذُ إِلَهًا مِّثْلَ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ) (2). وكذلك إسكان الزوج والطفل الرضيع في تلك الأرض الجافة القاحلة...

1 - الأنعام، 79. 2 - نور الثقلين، ج 3، ص